أسس أنثروبولوجية وسيكولوجية .

أما كلمة « إيديولوجيين » Idèologues فقد ظهرت لأول مرة حينما أراد نابليون أن يحقّر جماعة من الفلاسفة الذين كانوا يعارضون أطماعه الاستعمارية ، فأطلق عليهم اسم جماعة « الإيديولوجيين » . ومنذ تلك اللحظة ، أصبح لكلمة « إيديولوجيا » معنى سيء ، فلم يعد يطلق على الفيلسوف لفظ « إيديولوجى » إلا حين تصطبغ فلسفته بطابع مذهبى ينأى بها عن الحقيقة ، ويضفى عليها صبغة لا واقعية . ومعنى هذا أن الفكر الإيديولوجى قد أصبح بمثابة تأملات وهمية لا تنصب على الواقع ، وكأنما هو مجرد مذهب لا واقعى (irrèelle) تكذبه شهادة الوجود الخارجى . وهكذا درج الاستعمال على تسمية أى تفكير باسم « إيديولوجيا » حين يجىء هذا التفكير — من وجهة نظر الحياة العملية — تافهاً أو عديم الشأن ، على اعتبار أن المحك الأوحد لقياس قيمة الفكرة إنما هو النشاط العملى .

ثم جاء ماركس K. Marx (١٨١٨ — ١٨٨٣) فوضع كلمة « إيديولوجيا » فى مقابل « وقائع اقتصادية » ، ونسب صفة « الإيديولوجية » إلى كل ما هو متصوّر عقلياً ، سواء أكان عقيدة دينية ، أم مذهباً فلسفياً ، أم إيماناً أخلاقيًّا ..... إلخ . وهكذا أصبحت « الإيديولوجيات » عبارة عن تبريرات منطقية لبعض أساليب التفكير والسلوك ، وصارت كلمة « إيديولوجيا » تنطوى على معانى الأسطورة ، والوهم ، واللغو الفارغ ، والتجريد البعيد عن الواقع . ولم يلبث الفلاسفة أنفسهم أن أصبحوا يستعينون بالطريقة الإيديولوجية فى تفسير آراء خصومهم ، فصار من المألوف أن تُفنَّد الأفكار بإظهار الطابع النفعىّ أو المقصد الخفىّ الذى تنطوى عليه ، وأصبحت « الإيديولوجيا » — كما يقول أحد المفكرين المعاصرين — إنما هى « الرأى الذى ينادى به خصمى »(١) !

ولكن أنصار الماركسية قد وسّعوا من مفهوم « الإيديولوجيا » ، فأصبحوا يفسرون الأفكار والمذاهب بالرجوع إلى القوى الاقتصادية وعلاقات الإنتاج ، وبذلك اعتبروا جميع الأفكار مشروطة بالمواقف التاريخية ، وصاروا يفسرون المذاهب على أنها مجرد تعبير عن الطبقات الاجتماعية . ولم يلبث علماء الاجتماع أن رحّبوا بهذا التقابل الذى وضعه

مولد ! وربما كان أعجب ما فى الإنسان هو أنه موجود مزدوج يمزقه الخلاف بين النفس والبدن ! إنهما زوجان عصبيان لا يعرفان ماذا يريدان : فهما لا يستطيعان أن يعيشا سويا . ولكنهما أيضاً لا يملكان الانفصال أحدهما عن الآخر ! إن اتحاد النفس بالبدن هو كاتحاد الرجل بالمرأة : فإن الواحد منهما لا يستطيع أن يعيش مع الآخر ، ولكنه لا يستطيع أن يعيش بدونه ! إن كلا منهما يريد حضور الآخر ويريد غيابه : فهو حين يكون معه ، يبغضه ويمقته ويتمرد عليه ، وحين يكون بعيدا عنه يحن إليه ويتحرق شوقا إلى الاجتماع به ! أليس من الواضح إذن أننا نعيش فى « تناقض وجدانى » حاد ، مادمنا نجد أنفسنا عاجزين عن الاستغناء عما نمقته ونحقد عليه ؟(١) .

ولكننا — سواء أردنا أو لم نرد — مضطرون إلى أن نحيا على هذا التناقض نفسه ، فإن وجودنا فى صميمه إن هو إلا توتر بين الزمان والأبدية ، بين الحرية والضرورة ، بين التناهى واللانهائية ، بين التعدد والوحدة ، بين الجسم والروح ... إلخ . ونحن نسعى جاهدين فى سبيل حل ما فى تجربتنا من ضروب تعارض عديدة أليمة ، ولكننا نشعر بأن « الثنائية » ضريبة باهظة قد فرضت علينا بوصفنا موجودات هجينة قد جبلت من طين ونور ! وقد نتمرد على قيودنا ، وننزع إلى تخطى حدودنا ، ولكننا سرعان ما نتحقق من أنه هيهات للطير أن يضرب بأجنحته فى أجواز الفضاء ، ما لم تكن هناك جاذبية أرضية يستند إليها فى صعوده نحو السماء ! وإذن فقد يكون من الخير لنا أن نتعرف حدودنا ، بدلا من أن نقتصر على التحرق شوقا إلى « المطلق » ، فإن هذه « الحدود » نفسها هى الأسوار التى نطل منها على ما وراء الحدود ، فنرى « المطلق » من بعيد !

ستقولون إنه لا حرج على الإنسان إذا هو تجاهل تلك « الحدود » ، فما أفادت الإنسانية يوما من كل تلك التأملات الفلسفية العقيمة حول تناهى الموجود البشرى ، وبطلان الحياة البشرية ، وتفاهة بنى البشر ! ألا يشهد التاريخ البشرى — باعترافكم أنتم يا معشر الفلاسفة — بأن حدود الإنسان قد تراجعت عصرا بعد عصر ، فما كان يراه الأقدمون عائقا منيعا لا سبيل إلى اجتيازه ، أصبحنا نستهين به اليوم بعد أن أتيحت لنا الفرصة لأن نذلله ونتغلب عليه ؟ وإذن فما جدوى إقامة السدود والحدود ،